لقاء

يتحدّث الفنّان التشكيلي الفلسطيني، في لقائه مع «العربي الجديد»، عن معرضه «إكسير الذاكرة» الذي أُقيم في عمّان مؤخّراً، ومقاربته الفنّية للعدوان على غزّة، إضافةً إلى جوانب مختلفة من تجربته التشكيلية التي بدأت أثناء الانتفاضة الأُولى. يقول: «ليس للفنّ قدرة على إيقاف الحرب، ولكنّه قادرٌ على إيصال صورة عنها لم يرَها الناس، ملموسة أكثر من الصورة الفعليّة»

هاني زعرب ولوحة غزّة

ما زلنا في المذبحة ولا تفصيل آخر يُقال

هاني زُعرب في مرسمه بباريس، 16 تشرين الأوّل/ أكتوبر 2023

أجرى اللقاء- **محمود وهبة**

المتأمّل في أعمال معرض الفنّان التشكيلي الفلسطيني هاني زُعرب، «إكسير الذاكرة»، الذي أُقيم مؤخّراً في «المتحف الوطني الأردني للفنون الجميلة» بعمّان، بالتعاون مع غاليري «ARTZOTIC» الرقمي، يشعر أنّها خارجة من ذاكرة مثقوبة، أو من حميمية تدفع الناظر إلى مراقبة فضاءاتها والأخيلة التي تجذبنا إليها. رؤية هذه الأعمال، باختلافها وتفاوتها، تُشعرنا أنّنا أمام سياقات تُركّز بقدر كبير على التقنية من دون الحاجة إلى الحشو. نجد ذلك في أوراق هاني زُعرب وأشجاره وسُطوحه حيث تعيش الكائنات بلطخاتها الحيّة بين نُقطتين وبقايا وساعات مكسورة ومشتّتة ونقاط تتدلّى من الأعلى. في سلسلة «سجين»، نجد ما هو مشابه لحياة الجزيئيّات أو الخلايا التي نبصرها في «الميكروسكوب»؛ خلايا أسيرة، أجسادُها تعود إلى التراب لتتحرّك داخله بما يُشبه لُعبة الألوان والخلايا والمجسّمات والأغطية، لنصل معها في النهاية إلى مقولة أنّ ما يُغلّفنا هو ما يأسرنا. أعمال تبدو كاستراحة بين شيئَين: الروح وما يُغلّفها، والجسد وما يقوله. التقت «العربي الجديد» الفنّانَ، للحديث من قُرب حول المعرض، وحول شجون الأعمال وبواعثها وعلاقة الفنّ بما يحصل اليوم ودوره في فضح الإبادة الصهيونية الجماعية في غزّة.

■ أُريد أن أبدأ معك من الحدث الراهن. حدّثني عن علاقة ما ترسمه، اليوم، بالواقع؟ وهل تشتغل على لوحة معيّنة ترتبط بالإبادة المستمرّة في غزّة؟

قبل الحرب كنتُ أعملُ على سلسلة من البورتريهات، ثم بدأت الحرب وتوقّفتُ. عادةً ما ألجأ إلى استراحة بين معرضَين. هذه الاستراحة ضرورية لأتخلّص من آثار المَعارض السابقة، خاصّة بعد أن يتمّ تحرير الأعمال كلّياً منّي وتصبح اللوحة مُنفصلة عنّي تماماً. ولكن حتى في الحروب، نادراً ما أشتغل على فنّ في قلب الحدث نفسه. أحسُّ بأنّني أحتاج باستمرار إلى أن أشعُر، أن أحزن وأفرح وأتلقّى ما يحصل وأهضمه وأرمي الكثير من ثرثراته قبل أن آخذ المادّة الأصليّة التي سأشتغل عليها. منذ بداية الحرب لم أشتغل عملاً كاملاً بمعنى العمل. كتبتُ فقرات، وملاحظات، وعبارات، ومشاعر، وهذا عادةً ما أُنجزه مع كلّ مشروع وكلّ فكرة أبدؤُها، الكتابة دائماً هي التي تأتي أوّلاً. هذا بالضبط ما أفعلُه اليوم.

■ هل يستطيع الفنّ بشكل عام اليوم أن يُقاوم أو أن يقول ما لديه تجاه ما يحصل؟ وما القدرة التي يمتلكها؟

منذ بدايتي في الرسم، أثناء الانتفاضة الأُولى، أجدُ أنّ الرسم هو فعلُ مقاومة. مقاومة للملل والخوف والكآبة التي كنتُ أشعرُ بها أثناء حالات منع التجوّل. بدأتُ أرسم منذ تلك الأيام في مخيم رفح ثمّ في قطاع غزّة لاحقاً. ما زلت أذكرُ جيّداً أيّام منع التجوّل لأربعين يوماً متواصلة، وكان بيتنا يقع في شارع رئيسي هناك. هذا ما كان يمنع حتى من دخول الضوء إلى المنازل. أؤمن، بكُلّ تأكيد، بالفنّ سلاحاً ثقافياً مُقاوماً ومُهمّاً، مثلُه مثل كلّ أشكال المقاومة الأُخرى. آمنتُ بناجي العلي، وغسّان كنفاني، وإدوارد سعيد ومحمود درويش، الذين كان لهم دورٌ مهمٌّ في إبراز القضيّة الفلسطينيّة. لا قدرة للفنّ على إيقاف الحرب طبعاً، ولكنّه قادر على إيصال صورة عنها لم يرَها الناس. صورة في مكانٍ ما هي لغة عالميّة حسيّة وملموسة أكثر من الصورة الفعليّة أو مَشاهد الإعلام. أمام كلّ ما يحصل اليوم، نسأل: ما الذي يُمكن أن نفعله أمام الصورة وأمام المجزرة؟ هل يقدر الفنّان أن يُنتج ما هو أكبر ممّا يحصل وأكبر من الواقع؟ هنا تكمن وظيفته وصعوبته في إيصال اللغة الحسّية إلى أقصاها، وهنا تكمُن المغامرة عندي.

■ في ما يخصك، هل يرتبط إدخال المواد المُختلطة في الاشتغال بفكرة ما؟

لم يكن لديّ قرار، ولو لمرّة، في استخدام مادّة معيّنة، لكن، كان لديّ دائماً هوس بتنويع المواد؛ إذ لم أنجز أية لوحة من مادّة واحدة. منذ معرضي الأوّل، ونتيجة نقص المواد في الداخل الفلسطيني آنذاك، كنتُ أعمل على إدخال عناصر متعدّدة إلى اللوحة: التراب، والزيت، والأكريليك، والباستيل، والفحم وأشياء وبقايا أُخرى؛ حيث أقوم بتجميع المواد لتدخل في قوام العمل تلقائياً ومن دون قرار. أتعامل مع اللوحة بوصفها خامة أو معالجة بصريّة للسطح، ليأتي بعدها ماذا تريد أن ترسم أو تحكي أو تفكّر. هذه المعالجة للسطح لا بدّ أن تكون غنيّة ومناسبة للفكرة المطروحة حسّياً وذهنياً وفكرياً، فكلّها تنصهر داخل العمل.

■ لكن كيف تُسهم هذه المواد، على خشونتها وغرابتها والانطباعات الصلبة التي قد تحملها، في إيصال فكرتك؟ وكيف تستطيع ربط بعضها ببعض؟

المواد ليست عبثية. أُؤمن بأنّ الفكرة هي التي تجرُّك إلى استخدامها وترغمُكَ على اختيارها دون مواد أُخرى. كلّ مادة معيّنة لها القدرة على المساعدة في إيضاح الفكرة ومحاولة تجسيدها وإضفاء شيء من الحميميّة عليها. وفي ما يتعلق بي، الموضوع ليس له علاقة باختيار مواد غريبة، بل الوقوع على مادّة قادرة على حمل الفكرة وإعطائها طبقة فكرية وذهنية تزيد من غناها وعمقها، هذا ما يعنيني بالدرجة الأُولى.

■ هل يمكننا أن نتحدّث عن طقس معيّن في اللوحات؟

يمكننا ذلك. أنحاز في أعمالي إلى الإنسان، بمشاعره وحسّه وعُمقه ووعيه ولاوعيه أيضاً. لذلك حين تنظر في أعمالي يظهر لك هذا الخروج من الزمان والمكان، خروج مقرون بمحاولة دائمة لأن تكون اللوحة نابضة وحيّة بأيّ مشاعر ممكنة. هذه المشاعر ستتطوّر لاحقاً، ولكن يبقى في العمل الفنّي أساسه الذي انطلق منه، وهو بصورة ما قوامه وركيزة بقائه منجزاً فنّياً.

■ ينحو التركيب البصري في أعمالك لإخراج الذاكرة من حيّز العرض التمثيلي البحت إلى إظهارها آثاراً تصنعها الصدمة (التروما) وتولّدها الأحداث. هل تقديم «التروما» أساساً للتذكّر والذاكرة يجعل من هذه الأخيرة موضوعاً أكثر حياة وواقعية؟

لا أعتقد تماماً أنّ «التروما» هي أساس للذاكرة والتذكُّر، بل أعتقد أنّ هذين يظهران في مرحلة ما بعد التخلّص من «التروما» وآثارها، هذا في حال وُجدت طبعاً. ما أُحاول إنجازه هو أكثر وأبعد من آثار «التروما»، وهو يتجلّى من خلال التلامُس العاطفي. تلامُسٌ يحاولُ بأكبر قدر مُمكن حشد الشعور والإحساس بشكل مصفّى، وتقديمه داخل عمل فنّي.

■ تعتمل اللوحات بشفافية عالية لتُظهرَ تداخُل المكوّنات والأشكال. هل الشفافية مدخَل إلى التذكُّر، وهل تحاول تقديمها عنصراً مقاوماً للنسيان؟

الحقيقة أنّني، حين ذهبتُ إلى الخطّ الموازي التقني الجديد الذي يظهر في آخر عشرين عملاً موقّعة بعنوان «سجين»، حاولتُ اللجوء إلى شفافية معيّنة استخرجتُها من الموادّ التي خلطت بعضها في بعض. هذه المواد الوسيطة التي استخدمتها في أعمال سابقة، هي مواد سائلة وشفّافة تعمّدت إخراج شفافيتها وكشفها والشغل عليها طبقاتٍ عدة، لتُعطي ألواناً أُخرى. مثلاً، حين نكون أمام طبقة شفّافة من هذه المادّة لونها أزرق تُوضع على طبقة أُخرى حمراء، التلامُس بين هذه الطبقات، على اختلافها، يُعطينا شيئاً من البنفسجي. كذلك الحال في ما يخص الذاكرة والتذكّر، فهُما أيضاً موجودٌ فيهما هذه الطبقيّة، وهذا التلامُس هو شيءٌ مشترك بينهما. مثلاً الذاكرة قد تأتي على بالك من خلال رائحة مكان أو شخص، وكلّ ذلك يحصل بطريقة لا شعورية ويوصل إلى طبقات أُخرى حول هذه الرائحة أو الشخص أو المكان. الذاكرة بدورها تتكوّن من هذه الطبقات، وفيها شفافية عالية تجمع بين أطرافها.

> ما أشتغل عليه أبعد من اختزاله في مفهوم الصدمة

> تنحاز أعمالي إلى الإنسان بمشاعره وعُمقه ووجوده

بين العضوي والحميمي

حول اقتراح الحميميّة مع العضوي والخام في عمليّة معالجة الذاكرة، يقول هاني زُعرب: «الحميميّة والعاطفة والإحساس والمشاعر كلّها عوامل أساسية في عملي. أحاول قدر المستطاع أن تكون أعمالي ذات نبض وحرارة وعاطفيّة، وأن يتخلّلها شيء حسّي، ولو كان خفيّاً، على شكل خيط يغلّف خلفيّة الأعمال، كأنها «دينامو» مستمرّ ودائم يحفظ العلاقة بين الموادّ الصلبة الموجودة وخيوط الحميمية والإحساس».

تصويب

شجنٌ قرائي

باسم النبريص

مـؤس، لقد أصبح الطلّاب يقرؤونَ أقلّ من ذي قبل، في كلّ بلدان المعمورة.
لم يعُد هناك ذلك الاهتمام الذي كان لدى جيلنا ومَن سبقونا، عندما كنّا على مقاعد الدرس، ونقرأ على ضوء السراج. ليس هناك، اليوم، من فضول لناس هذا الزمن نحو الورق، فهُم أكثر تشتيتاً، بعد وقوعهم في متاهة الإنترنت. لكنّ الحقيقة أنّ حالنا نحن، اليوم، أشبه بحالهم كذلك، خاصّة بعد أن ضاعت مكتباتنا الشخصيّة في كلّ من القاهرة (أربعة آلاف كتاب، أغلبها من سور الأزبكية في أواخر عصره الذهبي بالعتَبة، عام 1983)، ويافا وشمالها وجنوبها (ألفان ومئة كتاب، عام 1989)، ومكتبة الدار في خانيونس «معلِش»: لن يكسروا معنوياتنا، مهما كان وسيكون. هُم عدوّنا فكيف نتوقّع منهم توحّشاً أقل، وهُم ما هُم؟
سنبني ونُعمّر. وكما بدأ آباؤنا من الصفر تحت الخيام، بعد أُولى النكبات، سيبدأ أولادنا وبناتنا وأحفادنا وحفيداتنا، من تحت الخِيام عينها، حالُهم حال جميع الأهل في الساحل الجنوبي.
بُوركت سواعد المقاومين، وهُم تاج الرأس وسنام القصيدة للأبد.
وكلّ الشكر لتلك المكتبات الأليفة التي راحت للأبد، فقد أسّستنا وصنعتنا، وجعلت منّا الطيّبين الأوفياء، وهذا يكفيها ويكفينا.
(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

إطلالة

في القصّة كما في الحياة

سومر شحادة

ما يصنع عبقريةً أدبية هي أدواتٌ يمتلكها المُبدع، وتأتي من داخل صنعة الفنّ، مثل الأسلوب واللغة، أو اجتراح أشكالٍ أدبية، أو إيجاد معادل فنّي لواقع شائك. كما أنّ العبقريات الفارقة هي نتاج لتراكم تلال الأعمال والتجارب والمدارس الأدبية، وجيوش موظّفي الأدب، وتأتي لتقطف حصاد من سبقها. تمثّل العبقريات المشهود لها ثقافة عصرها، وتُطلّ على آخر. وتمثيلها لما هو أوسع منها مبنيّ على أساس فنّي، على نصوص قوية بارعة، تختزل تجارب كبيرة، وتلهم كتّاباً آخرين.
على مستوى الثقافة العربية، إخال أنّ الروائي والقاصّ والصحافي الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني (1936 - 1972)، الذي تُصادف اليوم ذكرى اغتياله على يد الاحتلال الإسرائيلي، واحدٌ من تلك العبقريات التي عرفتها الثقافة الفلسطينية، والعربية كلها، إذ يكفي قراءة قصّة من قصصه ليجد القارئ لديه صلابة الموضوع واختزال الفكرة وإشارتها إلى ما هو أوسع منها.
لا حاجة إلى الاستدلال الأدبي طويلاً لتأكيد أهمّية غسان كنفاني الفارقة، إذ ليس أمضى من اغتيال الصهاينة له إشارةً إلى خطورته بوصفه أديباً ألمعياً، وفنّاناً، وقلماً حرّاً شغوفاً بعدالة قضيته، إلى جانب نضاله السياسي. تخلص قراءة فاحصة لأدبه إلى أنّ أهمّيته ليست في عدالة الموقف فقط، بل في فنّيته أيضاً، وهما متلازمان في أدب غسّان كنفاني.
إذاً، اغتالت «إسرائيل» كاتباً نجماً وهو في السادسة والثلاثين من عمره بتفجير في بيروت. وكان ما يزال لديه الكثير ليكتبه ويقوله نيابةً عن شعبه، خصوصاً أنّه امتلك ناصية الفنّ، وقد جاء من قلب الصنعة الفنّية والتجربة العامّة. بهذا، كان خطره على «إسرائيل» مثل البارود. إذ ليس بعيداً عنه ما قدّمه إدوارد سعيد (1935 - 2003) للقضية الفلسطينية؛ يُضاهي ما قدّمته جيوشٌ عربية كاملة.
دفعتني قراءة قصّة لغسان كنفاني إلى التفكير فيه باعتباره عبقرية محقّقة وأَدها الاحتلال؛ والقصّة التي أُلخّصها الآن منشورة ضمن المجموعة القصصية «عالم ليس لنا»، وهي بعنوان «جُدران من الحديد»، موقّعة في بيروت سنة 1963؛ وتتحدّث عن عصفور حبيس قفص، يضرب الجدران بصورة باسلة بجناحيه، طوال الوقت، من غير أن يهدأ. يقول أحدهم للطفل الذي يأسر العصفور، وقد جاءه هدية من عمّ بعيد، بأنّ العصفور يتعرّف على منزله الجديد، ويحتاج إلى ثلاثة أشهر حتى يعتاد عليه.
يُغيّر الطفل القفص، يُحضر قفصاً آخر أوسع، لكنّ العصفور يستمرّ بطيرانه الغضوب الدائب. ويقول أحدهم للطفل إنّه أخطأ بتغيير القفص، لأنّه مع المنزل الجديد للعصفور خسر الوقت الذي مضى في اعتياده على المنزل الأوّل. لكن، كان الطفل يهتمّ بأن يُنجز للطائر سكناً واسعاً جميلاً، يدفعه إلى رفض الحرّية إذا ما فتح له القفص يوماً. كان الطفل يحاول رشوة العصفور بالمنزل الجديد الواسع. وما حدث أنّ الحسّون توقّف عن الحركة، ليس لأنّه ألف السجن، ليس لأنّه ألف المنزل المسوّر بالقضبان. وإنّما، مثلما يقول أحدهم للطفل، لأنّه يحتضر.
لم يقدر الحسّون على اعتياد الحياة داخل القفص، لم يقدر الاعتياد على الحياة المسيَّجة، ورفاهيتُها لا تعنيه. فالحرّية عند الطائر تجربة لا تُعوَّض، لا تُستبدل، لا يُستعاض عنها، ولا يُعتاد على حياة أقلّ منها. الطائر رفض الترويض، مات وهو يضرب بجناحيه الغضّين، ببسالة، جدران السجن الحديدية.
وأنا أبحث عمّن يكون هذا الطائر، لم أجد معادلاً له في قصّة الكاتب الفلسطيني إلّا الإنسان الفلسطيني الذي استمرّ يضرب الأسوار، استمرّ بجناحيه يضرب الجدران التي فرضها عليه الاحتلال. ولا يوجد ما يمنع أن يكون الطائر الذي قتلته محاولاته الوصول إلى حرّيته؛ طفلاً من غزّة أو الناصرة أو القدس، طفلاً قتله الاحتلال.
(روائي من سورية)

استعادةٌ لتجربة السجن بعد اثنين وعشرين عاماً

كائنات وأشياء يُغلّفها الشعور بالاختناق

> يُشير هاني زعرب إلى أنّ لوحات سلسلة «سجين» تنطلق من تجربة شخصية، مضيفاً أنّه أنجز عشرين عملاً منها، قبل أن يتوقّف بسبب العدوان على غزّة

«إكسير الذاكرة»، ثنائية، تفصيل، قطران وموادّ مختلفة على قماش، 90 × 152 سم، 2023 (من المعرض)

يستكمل التشكيليّ الفلسطيني هاني زُعرب حديثه إلى «العربي الجديد»، مُتناولاً حضور الوعي الذاتي في أعماله بالقول: «الوعي الذاتي هو أساسي ومفصلي في عملي وبحثي ورحلتي في الحَفر داخل الذات، ولكنّي أُولي اهتماماً كبيراً للّاوعي الذاتي.
فعملية التذكُّر عملية غير واعية، من يستطيع أن يجزم ويُؤكّد؟ المساحة التي قد تكون مُرضِيَة هي منطقة «البين بين»؛ بين الوعي واللّاوعي. الذاكرة هي لاوعي بكلّ تأكيد، لكنّ التذكّر هو عملية استفزازية من قبل الذاكرة، قد يدخل فيها القليل من الوعي أو جزء منه».
وعن مجموعة اللوحات التي تحمل اسم «سجين» وعلاقتها بعملية التذكّر، يُوضّح الفنّان الغزّي: «هذه اللوحات مبنيّة على تجربة شخصيّة فعلاً، فقد عشتُ تجربة سجنيّة عام 2002، واشتغلتُ عليها بعد السجن مباشرةً في مسابقة الفنّان الشابّ، آنذاك، في رام الله. اشتغلتُ على موضوع السجن، والعمل الذي قدّمتُه كان عاطفياً ومناسباتياً، خارجاً لتوّه من داخل «التروما» والحالة النفسية الصعبة، فلم أشعر أنّني تحدّثت فيه، أو من خلاله، عن شيء عميق أو له علاقة بالفنّ. بعد مرور اثنتين وعشرين سنة عدتُ إلى هذه الذكرى لنبشها والبحث فيها للمرّة الأُولى، هناك جزء ذاتي بداخلي هو الذي فرض عليّ تذكّر هذه التجربة والرغبة في الحديث عنها في هذا الوقت بالذات. كان من المُفترض أن أُنجِز ثمانيةً وأربعين بورتريهاً لثمانية وأربعين سجيناً، طبعاً لِما في رقم ثمانية وأربعين من دلالة في حياتنا نحن الفلسطينيّين، ولي أنا شخصياً، إذ أبلغ السنة المُقبلة عامي الثامن والأربعين».
ويتابع: «للأسف، بدأ العدوان على غزّة في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023، ولم تُتَح لي الفرصة ولا الاطمئنان النفسي لإكمال العمل. أنجزتُ عشرين بورتريهاً وتوقّفت. فعادة أشتغل وأنا بكامل وعيي عاطفيّاً. لا أستطيع أن أشتغل في الوقت الذي تكون فيه عاطفتي مشتّتة، يجب أن تكون عاطفتي حاضرة ومتوقّدة أثناء العمل أو على الأقل أثناء التفكير فيه والإعداد له. يجب أن «أُفلتر» عواطفي وحُزني قبل أن أُنجز أيّ فكرة».
ويضيف: «عشرون بورتريهاً مُنجَزة من الموادّ الوسيطة مع الزفت، كنتُ أقصد أن تكون بورتريهات معروضة وكأنها لكائنات ينقصُها الأكسيجين. كان هذا هدفي من التقنية هذه مجرّد بورتريهات تشعر بالاختناق، كائنات وأشياء مُغلّفة تحتاج إلى هواء».
نسأله، في الختام، عمّ تغيّر فيه بعد العدوان على غزّة، فيجيب: «نحن ما زلنا في المذبحة، وليس لديّ أي قدرة على القول أو التفصيل أو التفسير، ولكن ما أعرفه تماماً أنّني بعد كلّ ما حصل قد تغيّرت!».

... محمود

فعاليات

همسات أندلسيّة عنوان العرض الذي يُقدَّم عند السابعة والنصف من مساء الجمعة المُقبل في فضاء «جدل» بعمّان، ويدور حول قصّة كتاب «طوق الحمَامة» لابن حزم، وبعض سِيَر الحُبّ الواردة فيه. يُشارِك في العرض، الذي كتبه **نديم صوالحة** ويقدّمه **نبيل صوالحة**، كل من **نانسي بيترو** (غناء) و**محمد كفينه** (غيتار).

عند السابعة من مساء غدٍ الثلاثاء، تُنظِّم مكتبة «خان الجنوب» في برلين نقاشاً حول كتاب **نَوَر: سبر لتحوّل الوعي الفردي والجمعي في ظلّ الأنظمة الشمولية، المجتمع السوري مثالاً** للباحث السوري **عبد الله شاهين** (الصورة). يسبر الباحث ملامح أفراد المجتمع المقهور، وعودة البُنى القديمة بعد ثورات الربيع العربي.

بعرض الفيلم الأردني «بنات عبد الرحمان» (2021) للمُخرج زيد أبو حمدان، تُطلق «حركة شباب حيفا» مشروعَ **السينما النقّالة** في «مسرح سرد» بالمدينة الفلسطينية المحتلّة، عند الثامنة من مساء الخميس، الخامس والعشرين من الشهر الجاري. يجوب المشروع أحياء حيفا العربية شهريّاً، حيث يعرض أفلاماً عربية وفلسطينية.

يقدّم الأب **بديع الحاج** (الصورة)، عند الخامسة من مساء العشرين من الشهر الجاري في «مؤسسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربية» ببلدة قرنة الحمراء اللبنانية، ندوة بعنوان **الموسيقى التراثية في لبنان: تحدّيات البحث الميداني ونتائجه**. ينطلق الحاج من دراسة ميدانية في قرى لبنانية مختلفة وصولاً إلى شمال سورية.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

أحمد عيسى كاتب

أليس في غزة

أحمد عيسى

يُوشِكُ الليل أن ينقضَّ على المخيم، يدنو النهار من موتٍ محتم، تتزاحم الأشياء في مخيّلتي، الموتُ والحياة، الحبُّ والبغض، الوجود ذاته، ليس في كينونته-أفكر- بل في جدواه، أيّ فراغ وصمتٍ يغرق العالم، الضمير الإنساني، ضمير الأنا، كلّ الضمائر مقحمةٌ في الشعر من دون جدوى، الصورة منزوعة الألوان، الأبيض والأسود ودرجاته فحسب، كلّ شيءٍ رمادي، غبار المعارك، براميل البارود، حجارة المنازل المقصوفة، حتى مواقف الدول!

عاد الإنسان إلى بدائيته، إلى العصر الحجري الأول، لكنه حين ذاك كان أكثر تحضراً، وكانت الناس لا تقتل من دون ذنب، ربما كانوا يموتون من أجل صراع على وليمة عشاء، لكن ليس هكذا، من دون أيّ سبب!

أنظرُ إلى باب الدكان الصغير الذي افتتحه عديلي (زوج شقيقة زوجتي) أمام مخيم الإيواء في موقع منزلي، كأني به لا أريد أن يشتري منه أحدٌ، الخيَم متلاصقة تلاصقاً يثير النفور، انعدمت خصوصية الناس، جميع النساء صارت متشابهات، كلّهن بملابس الصلاة، كلهن وجوههن سمراء من الشمس، أياديهن خشنة مصفرة من إيقاد النار، أرى ملامح أمي في وجوه الكبيرات منهن، كلهن أمي، أمي التي نزحت بعيداً عنها ولم أرها منذ أسابيع، لا يمكنني أن أنسى وجهها، ملامحها تطاردني، تلومني «يما النصيب، يما لا تخاف، يما مش حيصيبنا إلا المكتوب، يما ما تفكر بمرتك وابنك ربنا حينجيهم بإذن الله».. هذه الأم التي كانت تقفز متعلّقة برقبة الجندي الإسرائيلي في الانتفاضة الأولى لتخلّص أخي من بين يديه، هذه المرة تشعر بالعجز، لا تستطيع التعلّق برقبة الطيار الذي ينطلق بطائرةٍ أسرع من الصوت، على ارتفاع عشرات الكيلومترات، ليقصف هدفاً لا يراه حتى، إنما يرى إحداثياته فحسب، يضرب ضربته من دون ذرة تأنيب ضمير، ليته يستطيع أن يرى وجوه ضحاياه، ليته ينظر في أعينهم قبل ارتكاب فعلته.

كانت الشمس قد هربت بالفعل، وكنتُ مرهقاً مشتتاً لا أتمنى أكثر من فراشٍ دافئ، استبدلته بقطعة حصيرٍ خشنة، ووسادة أحتضنها لأغطّ في نومٍ عميق.

سأنسى، أقرر أن أنسى كلّ ما قرأته، الأدب والفانتازيا والتاريخ والجغرافيا، علني أنسى وجودي ذاته، ثم أغرق نفسي في أعمالٍ يدوية مرهقة، أشياء تجعلني أتعب ولا أفكر، ما أقذر التفكير حين يحتلّ كياني! أصبح كرةً هائجةً في بحرٍ خِضمّ، بحر أعظم من كل مخاوفي.

في غمرة الملل الذي يخضّب حياتنا صرت أبحث عن ذاتي في أدق التفاصيل، في وجه فارس، طفلي الرضيع، في ضحكة سارة، ابنتي المتخيّلة، التي جاءت من وحي خيالي، صنعتها وأطعمتها حبي وجعلتها تقرأ كلّ رواياتي، أحببتها وجعلتها تحبني، ابنتي التي تشبه «أليس»، وترى نفسها أميرة العوالم كلّها، كم أحسدها، «أليس».. ليتني أتعثر مثلها، ليت الوطن يشبه جحر أرنب.

عندما أخبرتني سارة كم ترى أنها تشبه «أليس» ضحكتُ، ثم قلتُ لها وهي تداعبُ لحيتي:

أنتِ صادقة تماماً، ورغم أنني لا أعرف

رسم للفنان عماد حجاج

صورة أليس الحقيقية، إلا أننا فعلاً في بلاد العجائب. قلتُها وأنصتُ قليلاً إلى صوت الطائرات تلقي بحممها على الشارع المقابل لنا. ساعَتَها نظرَت إليَّ نظرةً حمّلَتْ ألف سؤال، في عينيها كانت تسألني: لماذا يا أبي تُلقَى هذه الصواريخ المتفجِّرة فوق رؤوسِنا؟ هل أغضبنا آلهتنا فأرسَلَتْ حمم الجحيم فوق رؤوسنا؟ أيُّ جريمةٍ ارتكبناها؟ ولأني لم أكن أعرف جرمنا، قلتُ في نفسي: ارتكبنا جريمة الحب. كنتُ أربِّتُ على رأسها من دون أي حرف، ولم تكن هي تسأل، لم تكن نظرتها تحمل إلا همّاً سرعان ما يزول، حين تخلع نعليها، وترقص حافيةً أمامي رقصةً طفولية لا أركِّز في تفاصيل موسيقاها، لأن أذني كانت مصغيةً أكثر إلى أصوات الصواريخ المتفجرة في الخارج، وجسدي كان يرتجف انفعالاً عليها. وكنت أصفّق وأحدث صوتاً عالياً علها لا تسمع سواه، ربما لتحتفظ ببراءة أعلم يقيناً أنها فقدتها.

كانت زوجتي مها، مدرّسةُ لغة عربية ضلّت حروف اللغة منها، تجلس لتدرِّس سارة، فلا تجد ما تقوله في كتاب التاريخ أو الجغرافيا، كلّما تحدثت عن حدود فلسطين كانت مها تبكي، فإذا ذَكَرَت شيئاً من تاريخ فلسطين كانت النكبات ودموعها تغرق كتاب التاريخ.

لفظتني وتبرّأت مني، سقطت في جحر أرنب، لتعيش كما كانت تتمنى، في بلاد العجب

«كانت طفلتنا سارة، حين كان الكون صغيراً أمامها، فلا تستيقظ الكواكب إلّا إن هي فعلت، إن طوّحت طفلتنا برأسها يميناً تتمايل كل الدنيا، وإن تمطّت قليلاً لا يتسع الكون لها، وإن ضحكت ترقص السماء رقصتها الأولى».

قلتُ لسارة: كانت «حتا» بلدتنا الأصلية أختاً ثانية، سقطت بصاروخ أطلق من طائرة «إف 16»، ثم عضضت على أسناني، ونظرتُ إلى مها نظرة عتاب.

«ألم نعاهد أنفسنا أن ننسى التاريخ، تباً للتاريخ.. بل تباً لنا» ثم أذهبُ خارج الخيمة أمارس هواية التدخين، بعد انقطاعٍ دام سنوات، صرتُ أشعل السيجارة التي يساوي ثمنها عشرين دولاراً بسبب الغلاء الفاحش، لأتأملها تحترق أمام ناظري. هكذا من دون أن أشهق نفساً واحداً منها، ليس اهتماماً بصحّتي، بل لأن صدري ببساطة لم يعد يحتمل.

دخلت سارة في تؤدة تهادت كأنها إحدى آلهة الإغريق، قالت بصوتٍ مرح متغنجٍ: هل يكفينا الحبّ يا أبي، لكي نحيا.

سقط قلبي بين قدميَّ وأنا أنظر إلى شعرها الحريري الأسود يتهادى على كتفيها، ورمشيها الطويلين يعملان أمام نافذة عينيها بسرعتهما القصوى، كأنهما حارسان عملاقان يحرسان جنية أميرة من أعين المتطفّلين، يحرصان ألا يصل إلى عينيها أحد.

صوت عبد الحليم يدوي في أذني، «من حاول فك ضفائرها يا ولدي مفقودٌ، مفقود» قلتُ لنفسي وكأني أهوى تعذيب ذاتي، وكأنها البلاد المفقودة! ثم ابتسمتُ قهراً.

خرجت سارة في صباح السابع من أكتوبر، ولم تعد من يومها.

غابت الشمس مرة أخيرة، لم أسمع صوتَ سارة بعدها، أسمع أنها كبرت في السن فجأة، شاخت وانحنى ظهرها، لفظتني وتبرّأت مني، سقطت في جحر أرنب، لتعيش كما كانت تتمنى، في بلاد العجب.

رفح، 3 آذار/ مارس 2024

إيمان الناطور كاتبة

تفاصيل غير معلنة

لم نكن قد استعدنا هواتفنا التي أرسلناها للشحن عند صاحب الطاقة الشمسية في الحارة، عندما سمعنا انفجاراً هز أعماقنا، ثم عدة انفجارات متتالية، خرجت لأجد زوجة عمي تتابع شيئاً ما على هاتفها وهي تبكي، اقتربت لأجدها عبر الإنترنت الضعيف جداً تتابع برنامجاً يعرض صوراً لجرائم الحرب يوم أمس، صور قطع لأجساد صغيرة، أيدٍ وأرجل وأجزاء من صدور ورؤوس وقطع أجنة صغيرة لنساء حوامل، ولأطباء يحملون أكياساً كبيرة من النايلون تحتوي على قطع من جثث الأبرياء، وقائمة طويلة بأسماء الشهداء وصور جثثهم المقطعة والمشوهة، كنت أغطّي فمي بيدي والدموع متحجرة في عيني عندما عدنا نسمع عدة انفجارات متتالية، وظهر خبر في أعلى شاشة الهاتف عن أنّ الانفجارات الجديدة في منطقة الشيخ رضوان، تحديداً في منطقة النادي الأهلي. صدمتُ للمرة الألف ولم أشعر بنفسي وأنا أركض لانتعال حذائي ثم ركضت إلى الشارع، وأنا أهتف بأسماء أبنائي فهم من سكان هذه المنطقة، صرخت في الشارع عدة مرات بأسمائهم، كنت أركض ولا أشعر بالدموع التي أغرقت وجهي، كأني أتذكر أنّ زوجة عمي صرخت بي وأنا خارجة، وربما أتذكر صوت عمي المذعور يصرخ بي أن أعود لأن الوضع خطير جدًا، لكني لم أشعر بنفسي إلا وأنا وسط منطقة النادي الأهلي التي تحولت إلى دخان وجثث متفحمة وأشلاء متناثرة في كل مكان؛ رائحة الديناميت تختلط برائحة الدماء الساخنة، ولون الدخان الأسود المتصاعد من كل مكان يختلط بلون الدم ، وبيوت المنطقة العالية الجميلة التي تحولت إلى أكوام من الحجارة ملأت المنطقة وأخفت الكثير من معالمها، وطواقم الدفاع المدني في كل مكان تحاول انتشال بقايا الشهداء بمساعدة رجال الطواقم الطبية والكثير من الناس، وجدتني أتابع الجثث التي كانت معظمها أشلاء لنساء وأطفال يقوم الناس بانتشالها بمساعدة الطواقم، وأنا أبكي بانهيار وأتوقع في كل لحظة إيجاد أبنائي، قصف آخر بالجوار جعل الجميع ينبطحون أرضاً وقصف آخر جعلهم يتفرقون راكضين هنا وهناك، ركضت بدوري لأبتعد عن المنطقة فتعثرت قدمي بشيء ما على الأرض وكدت أسقط. نظرتُ إلى ذلك الشيء لأجده ذراعًا مبتورة ملطخة بالدماء لطفلة تطبق بيدها على دميتها التي لطختها الدماء بدورها، صرخت، غطيت فمي بيدي ودموعي تنهار على وجهي دون وعي، تحركت بطريقة عشوائية لا واعية وجسدي يرتجف من هول الفجيعة، سيارة تقف فجأة، صرير عجلاتها على الأسفلت مرتفع ويُفتح الباب:

- اركبي يا ابنتي.

رجل مسن يبدو عليه الهلع، ركبت معه وقلبي يخفق بقوة.. سمعته يردّد بصوت مرتجف:

- يا رب... اعمِ عيونهم عنا...

استدرت إليه، دموعه تنسكب بشكل غير مألوف وهو يردد آية: «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون»...

نظر إليّ وقال:

- الأفضل ألا توجدي في أماكن القصف. الوضع خطير يا ابنتي.

قال إنه كان ذاهباً لإحضار ابنته من بيتها الواقع في نفس المكان، لكن البيت دُمّر بمن فيه، الجميع أكدوا له أنها وأبناءها كانوا في البيت قبل دقائق من الانفجار، لكنه لم يستطع التعرف على جثتها، الجثث مقطعة تماماً. ما يستخدمونه هو أسلحة غير طبيعية، ما الذي يستخدمه هؤلاء الإرهابيون لقتل الأبرياء. إنها أسلحة لم تستخدَم في أيّ حرب سابقة، إنهم وحوش وليسوا بشراً...

نزلت من السيارة وشكرته، ناولني إسوارة ذات حبيبات بلاستيكية ملونة بين الوردي والأبيض وقال بحزن:

- هذا كانت تصنعه لينا... إنها هوايتها المحببة.

عرفت أنّ ابنته اسمها لينا، وأنّ هوايتها صنع هذه الإكسسوارات الصغيرة. سمعته يهمس:

- اقبليها مني .

ترددت قليلًا ثم تناولتها، وقلبتها بين يدي. كانت كلّ خرزة تحوي حرفاً لتكوّن الحروف المكتوبة على الخرزات كلمة (love)، رفعت رأسي إليه، رأيته ينظر إليّ كأني ابنته الراحلة لحظة ثم يمسح دموعه التي انسكبت، ويردّد:

- لا تغامري بنفسك، مهما اعتقدتِ أنّك لست مهمة، أكيد أنت مهمة بالنسبة لأحدهم.

لبستُ الإسوارة وأنا أمعن النظر فيها بحزن شديد، رأيته يبتعد مسرعاً بسيارته، فتسمرت أتابع آثاره بشرود، ثم دلفت إلى بيت عمي، صعدت الدرجات أسأل أبناء عمي عن هاتفي، وما زال الرعب واضحاً في ركضي وهلعي، وأنا أتناول الهاتف الذي أعادوه لي وقد شُحن جزء قليل من بطاريته بسبب ضعف ألواح الطاقة، اتصلت بأحد أقرباء أبنائي مرات كثيرة، أردت الاطمئنان على مكانهم دون جدوى، فالإرسال مقطوع منذ أيام، وشكرتُ الله أني استطعت أن أتصل هذه المرة، واستطعت السؤال عنهم وعرفت أنهم نزحوا الى رفح.

شعرت براحة مفاجئة جعلتني أنهار مكاني.

لم أعرف كم مرة غسلت وجهي لأستفيق مما رأيته اليوم، ولكن أيقظني صوت ابنة عمي الهادئ:

- أنتِ تستهلكين الكثير من الماء.

تذكرتُ أنّ الماء والكهرباء مقطوعتان منذ أول يوم في الحرب، وأن الناس أصبحت تخزّن الماء وتقتصد به خوفاً من الوصول إلى الجفاف، ارتميت منهارة على سريري وكل خلية في جسدي تنتفض مما رأيت.

صورة ذراع الطفلة وأشلاء الأبرياء تتراكم في ذاكرتي، أشعر بالغضب من نفسي، كيف يمكنني التسامح في ما رأيت!

علت أصوات انفجارات متتالية أوقفت أمل (أمل شخصية أدبية اختلقتها تعكس صوتي السردي) عن الكتابة. بنات عمي يصرخن من خارج الغرفة بخوف، صوت ابن عمي الأكبر يهتف:

- حزام ناري على منطقتنا.

شغلت الراديو في هاتفي بسرعة وإذا بالمذيع يهتف لاهثاً:

«يا الله ! يا الله ! حزام ناري تشنه طائرات الاحتلال فوق رؤوسنا الآن في منطقة «الشفاء» و«تل الهواء» بمدينة غزة، الضحايا من الأبرياء يتساقطون حولنا أشلاء...».

يتصاعد صوته يبكي بحرقة واضحة ويكرر:

«يا الله يا الله يا الله! جثث محترقة وأشلاء لنساء وأطفال، الدماء في كل مكان حولي... أنقذنا أيها العالم نحن وحدنا هنا. نحن هنا أيها العالم».

انهارت دموعي تأثراً، وقلّبت بين القنوات لأستمع لمحطات خارجية متعددة تنقل ما يجري في دول العالم العربي والغربي من احتجاجات على المجازر التي يقوم بها الاحتلال الاسرائيلي في غزّة، تظاهرات في جميع دول العالم، العالم كله ينتفض، لم تبق دولة في العالم إلا انتفضت عبر تظاهرات تندد بحرب الإبادة الجماعية على قطاع غزة المحاصر.

ينتابني بعض الرضا لهذه المواقف النبيلة، لكني أتمنى أن يغيّر هذا شيئًا، قلبت القنوات مرة أخرى، صوت لمذيعة لا أعرفها: «جيش الدفاع الاسرائيلي قتَل اليوم أكثر من مائتي إرهابي فلسطيني و...»

شعرتُ بالغضب من كلمة إرهابي فلسطيني، وعدت أتذكر ذراع الطفلة الذي تعثرت بها، وأتساءل عن أي إرهابيين يتحدثون!

هل هناك أطفال إرهابيون يحملون دمىً وردية! ما الذي يغيّب عقول هؤلاء! أي إجرام هذا!

عدتُ أشعر بدمائي تثور في أعماقي، وأنتبه أنها قناة إسرائيلية...

رباه! حتى إعلامهم عبارة عن إرهاب منظم وواضح ويتعارض متعمداً مع إعلام العالم كله...

تذكرتُ دموع الكهل الذي أوصلني بسيارته، ترى كيف يشعر إنسان فقد ابنته الوحيدة وأبناءها معها، ولم يستطع إيجاد جثثهم ربما لأنها تقطعت أو تطايرت بعيداً من ضغط الانفجارات أو لأنها تفحمت أو...

أغمضت عينيّ وأنا أشعر بالغثيان، تركتُ الهاتف ودفنت وجهي بين كفيّ دقائق لأهدأ بينما أصوات الانفجارات حولنا لم تتوقف لحظة، فتحتُ عينيّ لتواجهني الإسوارة الوردية التي منحني إياها الكهل وهو يغادر.

أمسكتُ أمل قلمها وكتبت بحزن: فتاة تهوى صنع الأساور الوردية وتطعّمها بكلمات الحب، تحولت اليوم إلى أشلاء حتى إن والدها عجز عن معرفتها. ترى ما الفرق بينها وبين موهوبة تكتب عن الحب في مؤلفاتها، وتسوق للعالم فكرة الحب والإنسانية؟

أنا لديّ هواية جميلة أيضاً، وهي الكتابة لأجل الإنسانية، ويمكن أن أموت بنفس الطريقة. كلنا على نفس السفينة وكلنا معرضون للموت بنفس الطريقة.

هل ظنت طائرات الاحتلال أنّ لينا إرهابية! هل تستحق لينا موتة كهذه! أم أن هؤلاء الإرهابيين إنما يشعرون بالسعادة أكثر كلما سفكوا المزيد من الدماء!

أمسكتُ هاتفي وعدت أحاول الاتصال بممدوح، الذي ردّ هذه المرة بأنه هرب من بيته في الشمال إلى منطقة تل الهوى مع عائلته وأنهم بخير.

قلت بفزع:

- لكنها منطقة خطيرة وتتعرض للأحزمة النارية طوال الوقت.

قال متأثراً:

- انهدمت أجزاء من البيت على رؤوسنا لكننا استطعنا النجاة، ونحن بخيرالآن.

عدتُ أطلب منه مغادرة المكان، لكنه قال لي إن الخروج إلى الشارع أكثر خطورة، وإن غزة كلها بكل مناطقها غير آمنة فأين سيذهب مثلاً؟ قال إنه سيبقى في مكانه حتى يهدأ هذا القصف الذي لا يتوقف، حينها قد يستطيع المغادرة. ساد صمت قصير ثم قال متلهفاً:

- حاولتُ الاتصال بكِ مراراً من دون جدوى. هل أنت والعائلة بخير؟

قلتُ له ألا يقلق فالجميع بخير، لكننا تفرقنا وأنا حالياً في بيت عمي...

وما إن أنهيتُ حديثي معه حتى فوجئت بنظرة عمي الغاضبة وهو يقول:

- لم أحب ركضك بهذه الطريقة من دون أن تردي على ندائي. الوضع خطير، ماذا كنتُ سأفعل لو أصابك مكروه؟ تعرفين أن المستشفيات بحالة رثة وخطيرة، أنت أمانة عندي لا يمكنك التصرف من رأسك...

كنت أعرف أني مخطئة وأقدر موقفه جيداً، فهو معه حق كونه شخصاً مسؤولاً أن يقلق. قلت بهدوء:

- أعتذر. أعترف أنّي أخطأت لكن ظننت أولادي...

قاطعني وهو يحاول أن يكتم غضبه:

- لا مبرر لك... الاطمئنان على أولادك لا يكون بهذه الطريقة.

عدتُ أقول متفهمة:

- أفهمك... أعرف ماذا يعني أن تكون شخصاً مسؤولاً في مثل هذه الظروف... ولو كنتُ مكانك فسأغضب.

رأيته يشيح بوجهه مغادراً فأخذت أفكر، تعودت التصرف بشكل مستقل في السنوات السابقة، طالما أنا في بيت عمي يجب أن أعوّد نفسي الآن أني لم أعد مستقلة، فصاحب البيت هو صاحب رأي يسبق رأيي حتماً، لأنه سيحمل المسؤولية أمام أي خطأ.

صورة البرج وهو ينهار، مناظر الأشلاء الآدمية والبيوت المدمرة، الدخان الأسود، كتبي، بيتي، ثم مرة أخرى صورة البرج وهو ينهار...

أتساءل: هل انتهت أسطورة الكاتبة والروائية والأديبة التي حلمت بها وحلم أبي لي بها أيضاً؟!

أراني في صورة طفلة صغيرة ترتمي في حضن والدها وتضحك وهو يحضنها ويرفعها في الهواء ضاحكة، شابة يافعة تقرأ على مسامع أبيها قصة أدبية قصيرة كتبتها لأول مرة: «ستصبحين كاتبة كبيرة».

كلمته وهو على فراش المرض:

«ليتني أستطيع أن أبقى حيّاً لأظل أرى نجاحك يا ابنتي».

هل انتهت الأديبة والروائية؟

نظرتُ إلى ذلك الشيء لأجده ذراعاً مبتورة ملطخة بالدماء لطفلة تطبق بيدها على دميتها